مرجوليوث

Margoliouth

مرجوليوث مستشرق بريطانى، ولد فى لندن سنة ١٨٥٨م، وظل حيًا حتى سنة ١٩٤٠م. تخرج فى قسم اللغات الشرقية بجامعة أكسفورد، وأتقن العربية، وعمل أستاذا بجامعة اكسفورد منذ عام ١٨٨٩م، ونشر مجموعة من الكتب والأبحاث والدراسات عن الإسلام والآداب الشرقية، وانتخب عضوا بالمجمع العربى العلمى بدمشق، والمجمع اللغوى البريطانى، والجمعية الشرقية الألمانية وغيرها.

وقد اخترنا له هنا كتابه الشهير « الديانة المحمدية Mchammedanism » بالإضافة إلى الفصل المكتوب عن الإسلام فى الموسوعة التاريخية المسماة « تاريخ العالم Universal History of the World » بعنوان « الإسلام وتعاليمه ».

* * *

فأما كتاب « Mohammedanism » فيقع فى ٢٥١ صفحة [١] وينقسم إلى سبعة فصول: الفصل الأول من صفحة (٧) إلى صفحة (٤١) بعنوان « العالم الإسلامى » والفصل الثانى من ص (٤٢ إلى ص ٧٤) بعنوان « محمد والقرآن » والفصل الثالث من ص (٧٥ إلى ص ١١٤) بعنوان « الدولة الإسلامية » والفصل الرابع من ص (١١٥) إلى ص ١٥٣) بعنوان « النظرية والتطبيق » والفصل الخامس من ص (١٥٤ إلى ص ١٩٢) بعنوان « الفرق الإسلامية » والفصل السادس من (ص ١٩٣ إلى ص ٢٢٦) بعنوان « الدعاة والأولياء » والطرق الصوفية » والفصل الأخير من ص (٢٢٧ إلى ص ٢٥١) بعنوان « الفن والأدب والعلم الإسلامى ».

وقد أوردنا عدد صفحات كل فصل من فصول الكتاب لهدف معين. فنظره بسيطة إلى أحجام هذه الفصول وعناوينها، تعطينا صورة واضحة عن « اهتمامات » هذا المؤلف، ومدى نزاهة هذه الاهتمامات!

---

(١) طبعة « Home University Library » غير مبين عليها تاريخ الطبع.

إن الكتاب عنوانه « الديانه المحمدية Mohammedanism » وبصرف النظر عن الخبث المقصود فى كتابات هذا المستشرق وغيره، من نسبة هذا الدين إلى محمد ﷺ، كأنه من صنعه هو، وليس وحيا منزلا من عند الله . . .

بصرف النظر عن ذلك، فالمفروض فى الكتاب أنه مكتوب للتعريف بهذا الدين. سواء كان المقصود بالتعريف – كما هو فى ظاهر الأمر – القارئ الغربى الذى يحب أن يتعرف على الإسلام، أو أى قارئ على الإطلاق [1] . . فالمفروض فى الكاتب أن يعطيه صورة متناسقة لكل جوانب هذا الدين، وأن يوزع الاهتمامات بالعدل بين هذه الجوانب – ما دام ليس معرضا! – بحيث يخرج القارئ فى النهاية بتصور سليم عن طبيعة الموضوع.

ولا يمنع هذا بطبيعة الحال من أن يتخصص كاتب فى جانب معين من جوانب الإسلام، أو أن يخصّص أحد الكتاب كتابا كاملا أو حتى جملة كتب للحديث عن نقطة تفصيلية أثارت اهتمامه بصفة خاصة . . فهو حر فى ذلك لا يملك أحد تقييده . . ولكن حين يتصدى الكاتب لإعطاء صورة شاملة للإسلام، وهذا هو مفهوم عنوان الكتاب، فهنا ينبغى عليه – ما دام ليس معرضا! – أن ينسق فى طريقة العرض، وفى توزيع الأضواء، بحيث تتكون عند القارئ صورة متكاملة ومتناسقة فى ذات الوقت عن جوانب الموضوع.

فإذا أطال المؤلف إطالة ملحوظة فى جانب معين، واختصر اختصارا ملحوظا فى جانب آخر، فهنا يتبدى لنا على الفور أن هذه « اهتمامات خاصة » للمؤلف، وليست من مستلزمات البحث العلمى الأصيل.

ومرة أخرى نقول إن الكاتب – أى كاتب – حر فيما يكتب! وليس لنا أن نلزمه حتى بمستلزمات البحث العلمى الأصيل! ولكن من حقنا عندئذ أن ندرس

---

(١) الدراسة موجهة للدارسين المسلمين فى الحقيقة « ليتتلمذوا » على هذا الفكر المسموم، ثم يعيدوا حكايته لبقية المسلمين بلغاتهم الأصلية!

هذه الاهتمامات دراسة خاصة، لأنها تكشف – ولا شك – عن «ميل» معين عند صاحب هذه الاهتمامات.

فأول ما يَبدَهُنا فى النظرة السريعة إلى فصول الكتاب وأحجامها، وقبل أن نناقشها مناقشة موضوعية لنرى إن كانت تحتوى على حقائق علمية أو مغالطات علمية، أن الكاتب قد أطال إطالة ملحوظة فى الحديث عن «الدول الإسلامية» وعن «الفرق الإسلامية» بقدر ما اختصر اختصارا ملحوظا فى التعريف المبدئى بحقائق الإسلام، وفى الحديث الختامى عن الحركة العلمية والحضارية الإسلامية!!.

ولا شك أن ذلك له دلالته!

فعوامل «التجميع» فى حياة المسلمين الواقعية هى مفهومهم العام المشترك لحقائق الإسلام، وممارستهم الواقعية لهذا الدين – بدرجات متفاوته بطبيعة الحال – وتاريخهم المشترك الذى انبثقت من مجموعه حركتهم العلمية والحضارية...

وهذه بالذات هى التى وقع فيها الاختصار الشديد الذى يصل أحيانا إلى درجة الإخلال...

وعوامل «التفريق» فى حياة المسلمين الواقعية هى تلك النزاعات السياسية بين الدول الإسلامية، وهى تلك الفرق الإسلامية الخارجة على إجماع المسلمين، أو على إجماع أهل السنة بتعبير أدق. وهذه بالذات هى التى وقع فيها التطويل الشديد، الذى يصل أحيانا إلى درجة الإملال.

فأى دلالة لذلك الاختصار حيث ينبغى الشرح والتبيين، ولذلك التطويل حيث يكفى الإلمام؟!

إن أولى الدلالات التى تعكس نفسية المؤلف – أنه «لا يحب» الحديث عن عوامل التجميع، وأنه «يحب» الحديث عن عوامل التفريق! وهذا فى ذاته مخالف «للنزاهة العلمية» التى تقتضى التجرد من الهوى، ودراسة جميع الجوانب وجميع العوامل بذات الدرجة من البيان والتوضيح، أيا كان الموقف الذاتى» من هذا العامل أو ذاك!

والدلالة الثانية أنه يريد أن يوحى لقارئه أن الإسلام لم يجمّع وإنما قام بالتفريق!

وسواء كان هذا القارئ هو القارئ الغربى الذى يحب التعرف على الإسلام، أو أى قارى على الإطلاق [1] فهذا الإيحاء بالنسبة إليه هو إيحاء موجه لغاية معينة، بعيدة عن الحقيقة العلمية والحقيقة التاريخية.

فعوامل الفرقة بين المسلمين حقيقة واقعة ولا شك، ولكنها لم تستطع أبداً على مدار التاريخ الإسلامى [بصرف النظر عن الفترة الأخيرة، وسنعود إليها بالحديث] أن تلغى انتماء المسلمين لشئ واحد مشترك بينهم جميعا هو «الإسلام».

فأما النزاعات السياسية بين «الدول الإسلامية» [بصرف النظر مؤقتا عن الفترة الأخيرة] فقد كانت شيئا يعنى الحكام أكثر مما يعنى المحكومين. وكان المحكومون فى الشرق والغرب – وهم المسلمون – يحسون دائما أنهم أمة واحدة متصلة مترابطة – سواء اصطلح حكامهم أو تخاصموا – وأن الرابط الذى يربط بينهم هو انتماؤهم للإسلام قبل انتمائهم إلى جنس أولون أو لغة أو وطن، فضلا عن انتمائهم لحكومة معينة! وكان أى مسافر فى أرض الإسلام يحس أنه فى «وطنه» أينما حل، من الأندلس إلى حدود الصين! لا يمنعه من هذا الإحساس احتلاف الحكومات، أو غيره من الخلافات.

وأما «الفرق الإسلامية»، ففيما عدا الخلاف الرئيسى بين الشيعة والسنة، فإن الفرق الأخرى كانت تثير الخلاف على المستوى الثقافى والعقلى والفكرى أكثر مما تثيره على مستوى الحياة الواقعة التى تعيشها جماهير المسلمين، ومن أجل ذلك لم يكن لها وقع حقيقى فى التيار العام لحياة المسلمين.

لذلك فإن هذا الاهتمام البالغ بعوامل الفرقة دون عوامل التجميع، هو اهتمام غير علمى! يكشف عن هوى صاحبه و«تمنياته» بالنسبة للإسلام والمسلمين.

---

(١) انظر الهامشة السابقة.

وثمة إيحاء آخر يأخذه القارئ من هذا العرض الذى أشرنا إليه من قبل، هو أن الإسلام ليس «واقعا» وإنما هو «تاريخ»! فبينما يعالج الكتاب الغربيون «الثقافة الهيلينية» مثلا على أنها «واقع» مع أنها «تاريخ» مضى عليه أكثر من ألفى عام، يريدون أن يقولوا إن «القيم» و«المفاهيم» و«المبادئ» و«التصورات» التى احتوتها الثقافة الهيلينية ليست شيئا من تراث التاريخ، وإنما هى تستحق أن تعيش فى حياة البشر على الدوام...

بينما يصنع أولئك الكتاب ذلك بالنسبة لتلك الثقافة، يأتى مرجوليوث فيتحدث عن الإسلام على أنه تاريخ! وذلك بالتوسع الشديد [بالنسبة لحجم الكتاب] فى سرد وقائع التاريخ - بصرف النظر عن نزاهة هذا السرد وصدقه العلمى - والاختصار الشديد فى الحديث عن القيم والمفاهيم والمبادئ والتصورات التى يحتويها الإسلام!

والنزاهة «العلمية» كانت تقتضى أن يعالج الإسلام - على الأقل - بمثل ما تعالج به الثقافة الهيلينية فى كتابات المؤلفين الغربيين، خاصة والمؤلف نفسه لا ينكر وجود تلك القيم والمفاهيم والمبادئ والتصورات فى الإسلام!

فإذا قال قائل إنه لا يُعقل أن يحتفى بحقائق الإسلام - وهو ليس مسلما - كما يحتفل بالثقافة الهيلينية التى يقوم عليها جانب من حضارته التى يعيش فيها ويعتز بها... فهذا القول فى ذاته حقيقة... ولكنها حقيقة أبعد ما تكون عن «النزاهة العلمية» وأقرب ما تكون إلى أهواء البشر وتعصباتهم... فهل يليق بالسادة «المثقفين» من المسلمين أن يأخذوا ثقافتهم الإسلامية عن أهواء الأعداء وتعصباتهم، ويتركوا المنبع الأصيل؟!

على أن مرجوليوث لا يترك هذا الإيحاء مجرد إيحاء، إنما يبرزه إبرازا واضحا فى فصل «النظرية والتطبيق» حيث يقول إن التطبيق الواقعى فى حياة المسلمين قد افترق - على مدى التاريخ - عن «النظريات» التى يقدمها الإسلام... ومن ثم يصبح الإسلام الحقيقى «تاريخا» حدث ذات مرة لفترة قصيرة من الزمن،

وخلى مكانه لهذا التطبيق المبتعد عن الإسلام. ومن ثم كذلك تصبح القيم والمفاهيم والمبادئ والتصورات التى يحتويها الإسلام تاريخا يروى وليست واقعا يعاش!

وهذه القضية – كما أسلفنا فى الفصل الماضى – من أكثر القضايا التى يستخدمها المستشرقون لفتنة المسلمين عن هذا الدين.

وبصرف النظر عن التعصب الأوربى الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة، والذى يجعل الكتاب الغربيين يتحدثون عن الثقافة الهيلينية على أنها واقع، بينما هى فى الحقيقة كانت نظرية لم تطبق فى واقع الأرض، ولم تعش إلا فى «ذهان» المثقفين فى أوربا، بينما القيم الإسلامية قيم واقعية طبقت تطبيقا واقعيا فذا فى حياة المسلمين – جمهور المسلمين – فترة من الزمن، ثم ظلت تطبق فى «واقع» مجموعة من الأفراد – على الأقل – على مدار الزمن كله.

بصرف النظر عن هذا التعصب الأوربى العام، الذى يجافى النزاهة العلمية المفروضة فى «العلماء!» ... فإن هناك مغالطات تاريخية ضخمة فى هذا الشأن، لا يتسع المقام للحديث التفصيلى عنها هنا [1]، ولكنا نكتفى هنا بإبراز سريع لبعض حقائق التاريخ.

الحقيقة الأولى أن الإسلام ليس دين الملوك ولا الحكام ولا المثقفين من المسلمين وحدهم، وإنما هو دين كل الناس. وميزان الإسلام الذى يقيس به قيمة «الإنسان» هى إسلامه! وليس مركزه الاجتماعى ولا السياسى ولا الاقتصادى ولا الفكرى! وإذا كان التفسير الجاهلى للتاريخ [2] أو أى تفسير آخر يجعل «التاريخ» هو تاريخ الطبقة الحاكمة، فإن الإسلام يجعل التاريخ هو تاريخ الناس ... كل الناس! فقط يرتفع الناس فى «المسئولية» كلما ارتفع مركزهم الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى أو الفكرى، ويصبح محتما

---

(١) تحدثنا عنها فى كتاب مستقل عنوانه «كيف نكتب التاريخ الإسلامى».

(٢) التفسير المادى للتاريخ.

عليهم أن يكون تطبيقهم الواقعى للإسلام أعلى من مستوى الفرد العادى، ومن ثم يصبح مقياسهم الذى يقاسون به فى الإسلام هو مدى تمسكهم بتعاليم الإسلام وروحه، لا مدى استعلائهم بالسلطان!

فإذا طبقنا هذا المقياس الإسلامى نجد لأول وهلة أن الإسلام لم ينته من حياة الناس فى تلك الفترة القصيرة البالغة القصر التى توحى بها – أو تنص عليها – كتب المستشرقين. فإذا كان الحكام قد بعدوا – جزئيا وتدريجيا – عن تعاليم الإسلام وروحه، فقد بقيت الكتلة العظمى من المسلمين قريبة من الإسلام فى سلوكها الواقعى وحياتها الواقعة، وهذا لا شك هو الأثر الحقيقى للإسلام فى واقع الأرض.

الحقيقة الثانية أنه على الرغم من تلك الانحرافات التى هى حقيقة واقعة ولا شك – ومؤسفة ولا شك – فقد بقى من معانى الإسلام فى حياة الناس – لأمد طويل – ما يقطع بأن هذا الدين لم ينته بعد تلك الفترة القصيرة كما يزعم المستشرقون بالإيحاء أو التصريح.

بقى أولا تصورهم السليم لحقيقة الألوهية – فى صورة التوحيد – بينما البشرية كلها حولهم فى ضلال.

وبقى ثانيا شعورهم بأنهم أمة واحدة. وهذا معنى لم يتمثل قط فى أى تجمع آخر فى تاريخ البشرية [وليس هنا مجال التفصيلات] (١).

وبقى ثالثا التكافل الاجتماعى بين المسلمين، سواء من جانب الدولة أو من جانب الأفراد بعضهم وبعض حسبما تقضى تعاليم الإسلام وروحه. وذلك معنى لم تفئ إليه البشرية إلا فى القرن التاسع عشر والعشرين، سواء من ناحية مسئولية الدولة عن «رعاياها» أو مسئولية الأفراد بعضهم عن بعض.

وبقى رابعا وفاء تلك الأمة بمواثيقها بصورة لم تعهدها البشرية فى تاريخها كله حتى هذه اللحظة فى القرن العشرين.

---

(١) تحدثنا عنها فى كتاب: «كيف نكتب التاريخ الإسلامى» السابق ذكره.

وبقى خامسا وسادسا تلك الحركة العلمية الضخمة وتلك الحركة الحضارية الضخمة المتفردتان فى التاريخ لا من حيث منجزاتهما فحسب، إنما من حيث كونهما قائمتين بوحى من العقيدة، ومنبثقتين عنها، لا فى صراع معها ولا خصام، كذلك الصراع القائم اليوم فى جاهلية القرن العشرين، بين العلم والدين، وبين التقدم الحضارى والدين [1].

والحقيقة الثالثة أن التاريخ الإسلامى ليس تاريخ انحدار مستمر كما يزعم المستشرقون إذ يغفلون عمدا حركات التصحيح وأثرها فى واقع المسلمين، كما يغفلون حركات البعث الأخيرة فى القرن الماضى وهذا القرن، وهى حركات بالغة الدلالة على الحيوية الكامنة فى هذا الدين.

ونعود – قبل مناقشة بعض المغالطات العلمية فى كتاب مرجونيوث – إلى النقطة التى أشرنا إليها من قبل وأرجأنا الحديث عنها، وهى غلبة عوامل الفرقة فى الفترة الأخيرة على عوامل التجميع فى حياة المسلمين.

حقيقة إن هذه الفرقة قد حدثت ذاتيا داخل الأمة الإسلامية نتيجة عوامل داخلية بحتة، ناشئة كلها عن بعد المسلمين التدريجى عن حقيقة الإسلام، والمسلمون مسئولون مسئولية كاملة عنها لا يُعتذر لهم بعذر!

ولكن حقيقة كذلك أن النفوذ الغربى – الصليبى الصهيونى – قد عمد عمداً إلى توسيع الشقة وزيادة الفرقة لتيسير ابتلاع العالم الإسلامى وهو مزَقٌ متناثرة، وإخضاعه للنفوذ الصليبى الصهيونى بما تحدثت عنه صراحة أقوال الغربيين أنفسهم فى كتبهم ومقالاتهم وتصريحاتهم السياسية [وخذ مثلا على ذلك كتاب الغارة على العالم الإسلامى تأليف شاتلييه الفرنسى].

وحقيقة أخرى أن العالم الإسلامى لم يستسلم لتلك الفرقة، المنافية لتعاليمه وروحه، ولواقع تاريخه أكثر من ألف عام، فقامت حركات

---

(١) انظر: «جاهلية القرن العشرين».

البعث الإسلامى تهدف – من بين ما تهدف – إلى إعادة تجميع المسلمين ... وهى هى الحركات التى ضربها الاستعمار الصليبى الصهيونى بضراوة ... وما يزال.

فاتخاذ الفرقة الحالية – التى تقف الصليبية الصهيونية فى وجه أية محاولة لإزالتها – دليلا على أن هذا هو «الواقع» الذى انتهى إليه المسلمون، هو مغالطة تاريخية تضاف إلى جملة المغالطات!

وأخيرا – قبل الدخول فى مناقشة بعض المغالطات الجزئية الواردة فى ثنايا الكتاب – نشير إلى تلك العبارة الصريحة الصارخة التى جاءت فى صفحة (٢٢٤) من الكتاب حيث يقول، بعد الحديث عن فشل المبشرين فى تنصير المسلمين، وعن عدم إمكانية إحلال مذهب آخر أو عقيدة أخرى فى المنطقة الإسلامية غير الإسلام:

«فالمتوقع إذن ليس هو قمع الإسلام بل إزالته من الوجود، ولكن تطويره بما يناسب الأحوال التى يفرضها العلم الأوربى على العالم بأجمعه، وذلك بقدر ما تسمح الأحوال المناخية فى العالم الإسلامى من هذا التطوير»!!!

إنها عبارة تكشف عن الـ ـليبى الصهيونى كله!

إن المطلوب أولا وبصراحة هو القضاء على الإسلام!

ولما كان ذلك المطلب مستحيل التحقيق، فيكتفى على الأقل بتبديل أفكار المسلمين، وإبعادها عن الإسلام، تماما كما قال القس زويمر من قبل.

وبعد ذلك كله يكون للمستشرقين من المسلمين «تلاميذ» ويكون لهذا الكيد كله مستجيبون من «المسلمين» ينفذون ما يطلبه أو ما يتمناه أولئك الحاقدون!!

* * *

يتحدث مرجوليوث فى صفحة (١٠٥) من الكتاب عن التشريع الإسلامى – وذلك بعد أن أنفق الصفحات (١٠١ – ١٠٤) فى الحديث عن بربرية

العقوبات الإسلامية [1]! – فيقول «إن النظرية الأولى للأسلام – أى التى وجدت فى بادى الأمر – هى أن الدين الجديد لا ينبغى أن يتدخل فيما كان يجرى العمل به فى الجزيرة العربية قبل الإسلام إلا فى أضيق الحدود (!!) وربما كان هذا الاتجاه قمينا أن يتبع بالفعل لو أن الإسلام بقى محصورا فى الجزيرة العربية وهو الأمر الذى يحتمل أن يكون النبى ﷺ قد اعتزمه فى وقت من الأوقات (!!) ولكن الإسلام انتشر حتى شمل أمما وبلادا تختلف اختلافا تاما عن الجزيرة العربية فى عاداتها وتقاليدها، بحيث كان تنظيم مثل هذا المجتمع يصبح مشكلة ضخمة لو لم يشمله التوحيد الكامل لكل شئونه. ومن هنا برز بدلا من النظرية الأولى، القول بأن «الإسلام يجبّ ما قبله» وأن شرح مقاصد القرآن ينبغى ألا يستمد من فعل الجماعة بل من فعل النبى ﷺ !!!

أربع قضايا – أو أربع مغالطات علمية وتاريخية هائلة – تأتى فى هذه السطور القليلة ... كلها بغير دليل على الإطلاق!

القضية الأولى أن الإسلام قرر فى بادئ الأمر ألا يتدخل فى واقع الناس قبل الإسلام إلا فى أضيق الحدود!

وفيم إذن جاء الإسلام، وفيم إذن هذه الخصومة اللدود بين العرب وبين الإسلام فى بدء الدعوة؟! أمن أجل التدخل فى أضيق نطاق كانت هذه الثورة العارمة من العرب ضد الإسلام؟! وماذا بقى من عرف الجزيرة قبل الإسلام لم يعيره الإسلام إلا ما كان من مكارم الأخلاق التى يدعو إليها كل دين سماوى، وحتى هذه فقد غير الإسلام القاعدة التى تقوم عليها، وأقامها على قاعدة جديدة تماما، مستمدة من مفاهيم الإسلام وتصوراته لا من مفاهيم الجاهلية وتصوراتها. «فالكرم» كان من مكارم الأخلاق فى الجاهلية، ولكنه كان يقوم على قاعدة جاهلية هى أن ينفق الإنسان لكى «تتحدث بذكره الركبان» أو ينفق خوفا من التعبير بالبخل، فبدّل الإسلام قاعدة التصور تماما، وجعلها الإنفاق فى سبيل الله،

---

(١) تحدثت عن هذه الشبهة فى كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» فصل «الجريمة والعقاب» وكتاب «شبهات حول الإسلام» فصل «الإسلام والعقوبات».

وقال: ﴿ كَالَّذي يُنفقُ مالَهُ رئاءَ النّاس ولا يُؤْمنُ بالله وَالْيَوْم الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَل صفوان عَلَيْه تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مّمَّا كَسَبُوا واللهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الْكَافرينَ ۝ ومَثَلُ الّذينَ يُنفقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتغَاءَ مَرْضَات الله وتَثْبيتًا مّنْ أَنفُسهمْ كَمَثَل جَنَّةٍ بربْوَةٍ أصَابَهَا وَابلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضعْفَيْن فَإن لَّمْ يُصبْهَا وَابلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بمَا تَعْمَلُونَ بَصيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٤-٢٦٥] وكذلك فعل الإسلام بكل ما أبقى عليه من عرف الجاهلية مما لا يخالف - بعد تصحيح قاعدته - مبادئ الإسلام. أما ما يخالف هذه المبادئ وهو القسم الأكبر من سلوك الجاهلية يومئذ فقد قاومه الإسلام مقاومة شديدة حتى ألغاه، وهذا هو الذى يفسر عمق إحساس المسلمين بالتغيير الذى أحدثه الإسلام فى سلوكهم وتصورهم، حتى إن الرسول ﷺ لما سألهم فى حجة الوداع: أى يوم هذا؟ وأى شهر هذا؟ توقفوا عن الإجابة خوفا من أن يكون اسم اليوم قد تغير أو اسم الشهر قد تغير، وقالوا: الله ورسوله أعلم!!

ومع ذلك يلقى «العالم» قضيته هكذا بغير دليل، ثم يتبعه كتاب «مسلمون» ممن يتحدثون فى هذه الأيام عن «القومية العربية» فيقولون إن عرف العرب فى الجاهلية لم يكن جاهليا! لأن الإسلام أقرّه وأبقاه!!

والقضية الثانية أن الرسول ﷺ كان يعتزم فى بادئ الأمر - أو «ربما» كان يعتزم - حصر نطاق الإسلام فى الجزيرة العربية! ولا يعطينا «العالم» أى دليل له يبرر هذا «الظن» منه! والقرآن المنزل على محمد ﷺ منذ أوائل الدعوة يقول له إنه مرسل «للعالمين» وإن القرآن ذكر كذلك للعالمين: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٧]، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكيف يخطر فى بال الرسول ﷺ أن يحصر الإسلام فى الجزيرة، وهذا هو التوجيه المنزل عليه من السماء؟!

والقضية الثالثة أن القول بأن الإسلام يجبّ ما قبله لم يظهر إلا متأخرا، بعد

د انتشر الإسلام فشمل بلادا وأمما غير الجزيرة العربية!! ولم يكن هذا القول معروفا ولا معمولا به والإسلام بعد فى حدود الجزيرة! وكأنما هذا لم يكن حديثا من أحاديث الرسول ﷺ، عرفه المسلمون ووعوه فى حياته ﷺ، ورأوا تطبيقه العملى على يديه!!

والقضية الرابعة أنه بعد انتشار الإسلام خارج الجزيرة فقط صار شرح مقاصد القرآن يستمد من فعل الرسول ﷺ!! أما قبل ذلك فقد كان عرف الجماعة – أى عرف ما قبل الإسلام! – هو المعمول به وحده فى بيان مقاصد القرآن!!

هل هذا كلام «علمى» يستحق النقاش؟!

* * *

ثم يتحدث العالم الكبير عن الفرق بين التشريع الإسلامى والقانون الأوربى (ص ١١١ - ١١٢) فيقول:

«إن الفارق الرئيسى بين التشريع الإسلامى والتشريع الأوربى هو فارق لا ينبغى إغفاله، ومن الواضح أنه نابع من الأحوال الطبيعية داخل المنطقة الحارة وخارجها (!!) فالتشريع الأوربى هو علم تجريبى، يشتمل على جهد يبذل فى تسجيل الحالات وتبويب النتائج، وتعيين لجان من الرجال تختار وتدرب بعناية، وتصحيحات وتحسينات لا تقف عند حد. أما نظرة الإسلام فهى أن التشريع عمل خارج عن إمكان الإنسان. وأن مهمة الإنسان محصورة فى معرفة مجموعة من الأوامر منزلة من عند الله، وتنفيذ هذه الأوامر. وعلى ذلك فالمبدأ الرئيسى فى الإسلام هو «فلنطع الله أكثر مما نطيع البشر»!!

وصدق العالم الكبير وكذب فى آن واحد!

فطاعة الله هى الأصل فى هذا الدين...

ولكن هذا الدين، الذى نزل لكل البشرية منذ محمد ﷺ إلى يوم القيامة، لم يغفل دور «الإنسان» فى صياغة الحياة وتطويرها على ظهر الأرض، لا إشراكا له فى الألوهية كما تصنع الجاهلية الأوربية المعاصرة – وكل جاهلية فى التاريخ – حين تعطى البشر ابتداء حق التشريع، فتقسم الناس على الفور إلى سادة وعبيد،

أو أرباب وعبيد... أرباب يشرعون للناس ويحملونهم على إطاعة أهوائهم، وعبيد ينفذون! وإنما فضلا من الله ورحمة، حتى لا يقف الإنسان عن النمو السياسى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى، الذى يتيح له دائما أن يقوم بالخلافة الراشدة فى الأرض...

إن فى الحياة البشرية أموراً ثابتة لا تتغير، أو لا ينبغى لها أن تتغير. وهذه جاءت شريعة الله فيها بقواعد ثابتة وتفصيلات كذلك ثابتة، كشعائر التعبد، والحدود، وعلاقات الأسرة، وعلاقات الجنسين ... إلخ.

وفيها أمور أخرى متغيرة، ويريد الله لها أن تنمو على الدوام ولا تجمد، كالصورة السياسية والصورة الاجتماعية والصورة الاقتصادية للأمة ... وهذه جاءت الشريعة فيها بالأسس الثابتة، وتركت العقل المؤمن يجتهد لوضع تفصيلاتها بما يناسب كل عصر، وذلك فضلا عن المباحات والمتروكات التى تنمو فى إطارها الحياة الإسلامية بحيث لا تصطدم بأصل من الأصول الثابتة فى التشريع.

وذلك هو الوضع السليم للإنسان فى حياته على ظهر الأرض: لا هو مكبل الخطى عن الحركة، ولا هو منفلت بغير رباط. ولكن الجاهلية المعاصرة – وكل جاهلية – ترفض الرباط السماوى ... ترفض أن تطيع الله، فتقع كما يقرّ العالم الكبير نفسه فى طاعة البشر!! وإنها لحماقة أن يحس إنسان أنه أكرم على نفسه حين يطيع بشراً مثله، منه حين يطيع الله!

ولكنا هنا لا نناقش حماقة هذه الجاهلية التى تتنفج على الناس باسم «العلم» و«التقدم» و«الرقى». إننا فقط نناقش ذلك العالم الكبير فى مغالطاته المركبة التى تحتويها تلك الجملة الصغيرة.

يريد ذلك العالم الكبير – فى إحدى مغالطاته – أن ينفى الجهد الضخم الذى بذله فقهاء المسلمين فى الاستنباط والاستدلال والقياس، والدراسة العملية للحاجات المتطورة للناس، لتغطيتها بغطاء من الشريعة الربانية على حد قول

عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه « يجدّ الناس من الأقضية بقدر ما يجدّ لهم من القضايا » وذلك قبل أن تعرف أوربا الجهد الذى يبذل فى « تطوير » القوانين بعشرة قرون على أقل تقدير!!

ويريد – فى مغالطة أخرى – أن ينسب « الجمود » الذى يصف به التشريع الإسلامى ولا شك، إلى مناخ المنطقة الحارة، وعجز أصحابها عن بذل الجهد العقلى الذى يقتضيه التطوير والتحسين، بينما هذه الصفات التى يتسم بها فى نظره التشريع الأوربى نشأت من الوجود خارج المنطقة الحارة!!.

وهو لا يفتأ يردد تلك الفكرة التى كان يلذ للغرب ترديدها لتخذيل الشعوب الإسلامية عن النهوض، بالإيحاء الدائم إليهم بأنهم – لظروف خارجة عن إرادتهم – لا يستطيعون النهوض! وذلك لكى تتهيأ الفرصة للاستعمار الصليبى الصهيونى أن يستقر فى تلك البلاد أطول مدى مستطاع!

ولكنه مع ذلك ينسى!

ينسى أنه – فى أكثر من موضع فى الكتاب [1] – يقول إن اليهود والنصارى الذين ظلوا فى البلاد التى فتحها الإسلام كانوا دائما أبرع من المسلمين، وكان المسلمون يستعينون بهم فى المسائل الهامة! ولا نريد أن نناقش القضية من جهة نفيه عن المسلمين أنهم يستطيعون أن يبرعوا فى أى شئ على الإطلاق، ولكن نناقشها من الجهة الأخرى: أو ليس تأخر المسلمين راجعا إلى ظروف المناخ التى تجعل أهل « الحزام الحار » – كما يسميه – عاجزين عن بذل الجهد وعن البراعة فى أى شئ؟ فما بال اليهود والنصارى الذين هم من أهل المنطقة ذاتها، ذوى براعة دائمة وهمة ونشاط؟! أولا تجرى عليهم يا ترى « حتمية » المناخ وآثاره التى لا فكاك منها؟!

ثم ينسى مرة أخرى، فى فصله القصير البالغ القصر الذى خصصه فى آخر الكتاب للحديث عن الفن والأدب والعلم، والذى يكشف عن الغل الدفين فى

---

(١) خذ مثلا ص ٨٥ ، ص ٢٣٣ .

صدره لهذا التراث الإسلامى الضخم، إذ يتناوله فى خمس وعشرين صفحة هزيلة، وهو تراث أنار الدنيا سبعة قرون كاملة على الأقل، واستقت منه أوربا نهضتها ... ينسى فيذكر للمسلمين أنهم «برعوا» فى جملة علوم وفنون!

يا عجبا! أو لم يكونوا فى فترة نهضتهم وبراعتهم تلك من سكان المنطقة الحارة التى تمنع البراعة وتمنع النهوض؟!

* * *

فى صفحة (١٢٩) إشارة طريفة تستحق التنويه!

يتحدث عن فريضة الجهاد فى الإسلام، ثم يقول: « ... ولكن أحوال العالم قد تغيرت تغيرا كبيرا منذ أيام الخلفاء حتى إن هذا الخطر لم يعد له اليوم شأن يذكر»!

أرأيت كيف يتحدثون عن خطر الجهاد فى الإسلام؟!

ثم انظر بعد ذلك كيف يسعون إلى تخذيل المسلمين عن الجهاد وتنفيرهم منه لكى يأمنوا هذا الخطر المرهوب!

* * *

فى الصفحات من (١٣٤) إلى (١٣٧) يتناول العالم الكبير قضية الحجاب تناولا لا يخطر على بال أحد من عباد الله «غير العلماء»!

يقول فى صفحة (١٣٤) إن النتائج المباشرة لهذا المبدأ (حق الرجل فى تعدد الزوجات، وحقه فى الطلاق) هو كما بيّن السير «موير» بحق عزلة المرأة واستخدام الحجاب!!

وقد نتعب نحن – غير العلماء – فى تتبع الدليل فى هذه القضية العجيبة التى تربط بين الطلاق وتعدد الزوجات وبين الحجاب.

وقد يقول الواحد منا – لجهله، وعدم كونه من «العلماء» – إن الحجاب نزل بأمر مستقل من السماء، لا علاقة له بأمور الزواج والطلاق على الإطلاق.

ولكن دعنا مما نقول نحن، ولننظر ماذا يقول العالم الكبير فى موضع آخر:

يقول فى ص (١٣٥) «إن أمر الحجاب أهون بكثير فى البادية والريف منه

فى المدينة، بل قيل إنه فى الريف والبادية يكاد يكون أمرا استثنائيا وليس هو الأصل ،!!

ويعود الواحد منا – لعدم كونه من العلماء – فيعجب! أو ليس الحجاب ناشئا فى أصله من حق الرجل فى الطلاق وتعدد الزوجات؟! وهل فى الريف والبادية لا يمارس الرجل حق الطلاق وتعدد الزوجات؟! أم العكس هو الصحيح، وأن رجل البادية والريف أشد استخداما لهذا الحق من رجل المدينة التى كانت – على وقته – يراعى فيها الحجاب؟!

ولكن عجبنا – نحن غير العلماء – لا ينتهى عند هذا الحد، فهو يعود فيقول فى ذات الصفحة بعد سطور قلائل: «ومع ذلك فإن استخدام الحجاب يرجع إلى زمن مبكر ... إلى ما قبل الإسلام بكثير» !!

ثم ... إن شئت أن تعجب مرة رابعة فاعجب لقوله بعد ذلك فى ص (١٣٧): «إن الحجاب يقود إلى تعدد الزوجات (!!) لأنه ما دام الرجل يتزوج دون أن يرى زوجته فهى مسألة «بانصيب» فعليه أن يسحب أكثر من ورقة لعل إحداها تكون رابحة» !!

واترك جانبا مغالطته فى أن الرجل فى الإسلام لا يرى زوجته قبل الزواج بينما توجيه الرسول ﷺ فى هذا الأمر صريح، إذ يقول للخاطب: «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» (١).

اترك هذا جانبا وارجع إلى القضية كما عرضها فى صفحتى (١٣٤)، (١٣٧)، فى الأولى يقول إن تعدد الزوجات يؤدى إلى الحجاب، وفى الثانية يقول إن الحجاب يؤدى إلى تعدد الزوجات !!

وهكذا يكون «اجتهاد» كبار العلماء !!

* * *

---

(١) رواه النسائى وابن ماجه.

وقضية أخيرة نختم بها هذا العرض لكتاب مرجوليوث، لا لنناقشها مناقشة جادة فما يستحق شئ من ذلك أن يناقش مناقشة جادة! ولكن لنبين فقط كيف يلتوى الفكر والقلم بأولئك المستشرقين لهوى فى النفوس.

يتحدث فى صفحتى (١٩٤، ١٩٥) عن نشأة التصوف فى الإسلام، فيقول إن الإسلام يمكن أن يرضى عامة الناس، الذين يعيشون على فلسفة اللذة والألم « ولكن هناك دائما من له فى الحياة نظرية مغايرة، وآخرون يمكن اجتذابهم إلى مبدأ آخر غير مبدأ اللذة والألم، وهؤلاء من ثم لا بد أن يبحثوا عن شئ آخر غير ما يرضى بقية الناس. والداعية والولى والصوفى ينبعون جميعا من غريزة الزهد هذه التى لا يمكن إغفال دورها فى الوجود »

ثم يقول: « إن الداعية إذن رجل يركز على هذا الجانب من الدين (الذى يجعل رضوان الله فوق كل شئ، والغاية القصوى للإنسان) والولى أو الصوفى هو الذى يجد طريقة خاصة للوصول إلى مرضاة الله ».

رفى هذا الكلام إيحاء واضح بأن الصوفى « أرقى » من المسلم العادى، بل إنه ليؤكد هذا فى عبارة صريحة فى صفحة (٢٠٢) حيث يقول: « إنه فيما يتعلق بهذا السؤال: ماذا أصنع لأصل إلى طريق الخلاص؟ فإن هؤلاء المتصوفة قد أعطوا إجابة أعمق بكثير، وفى نظر بعض الناس أكثر دلالة بكثير، من تلك التى تعطيها عبارات الإسلام البسيطة »!!

فهو هنا لا يقول فقط إن الصوفى « أرقى » من المسلم العادى، بل يكاد يقول إن الصوفية أرقى من الإسلام ذاته!

ثم نعود الآن إلى ص (١٩٥) حيث يقول: « إن هذا الاتجاه (أى الاتجاه الصوفى) قد وجد غذاءه من تأثيرين أجنبيين: التصوف المسيحى فى الغرب، والتصوف الشرقى فى فارس والهند »!

أرأيت إلى الحصيلة النهائية لهذا الالتواء كله؟ إنه « إغواء » للمسلمين يسير فى اتجاهين. إغواء أولا بالتصوف باعتباره – على أقل تقدير – هو الصورة

الراقية للعقيدة، وإغواء آخر خفي « للمثقفين » بأن الإسلام يناسب العامة ولكنه لا يرضي مطالب الطبقات الأعلى فكرا أو الأعلى مشاعر . . . إنما الذي يعطي هذه المطالب هو الفكر المسيحي . . . أو غير الإسلامي في أية صورة من الصور!!

فأما الإغواء بالصوفية فلعلنا لا نعجب أن يكون المستشرقون من دعاته بعد أن رأينا كيف يفزع الغرب من خطر الجهاد، فإذا وجدت الصوفية التي يقول عنها في ص (١٩٥) : إنها تؤدي إما إلى الغيبوبة وإما إلى التأمل الفكري المجرد فقد أمن الغرب من ذلك الخطر المفزع القتّال!

وأما إغواء « المثقفين، فأمر لا يحتاج – بعد – إلى بيان!!

* * *

وقد كان هذا كله يكفينا بشأن « مرجوليوث » .

ولكن الفصل الذي كتبه في موسوعة تاريخ العالم Universal History of the World بعنوان « الإسلام وتعاليمه » في المجلد الخامس، يحوي إضافتين طريفتين، تستحقان سطورا أخرى من الحديث!

الأولى قوله، إن الرسول ﷺ مجهول النسب! لأنه يسمى محمد ابن عبد الله، وكانت العرب تطلق على من لا تعرف نسبه اسم عبد الله!

والثانية هي كلامه عن الشعر الجاهلي وإعجاز القرآن حيث يقول ما خلاصته إن القرآن « يقال عنه » إنه معجز، بالقياس إلى الشعر الجاهلي الذي كان أعلى إنتاج بلاغي للعرب وقت نزول القرآن، ومن ثم يستدل على أنه كلام الله وليس كلام البشر، لأن أعلى ما يستطيع البشر أن يقولوه لا يقاس بشيء من بلاغة القرآن . . . .

ومرجوليوث لا يعجبه هذا القول!

وبصرف النظر عن رأيي الخاص في هذه القضية، وهو أن بعض البلاغيين القدامى قد ركزوا على الإعجاز البياني للقرآن حتى نسوا – أو كادوا – جوانب الإعجاز الأخرى، بينما القرآن في الحقيقة معجز في كل اتجاهاته، وليس في بنائه اللفظي فحسب . . . وأن إعجازه ككتاب تربية، أخرج من قبائل العرب المتناحرة

المتنافرة تلك الأمة العظيمة التى شهد لها خالقها سبحانه بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وإعجازه ككتاب عقيدة، ينفذ إلى النفس البشرية من كل منافذها الفطرية ومكامنها، ليقرر فيها عقيدة التوحيد بذلك الحسم والوضوح والشفافية ... لا يقل بحال – هذا وذاك – عن إعجازه البيانى.

بصرف النظر عن رأيى الخاص فى هذه القضية ... فإن مرجوليوث – كما قلنا – لا يعجبه القول بإعجاز القرآن! ومن ثم يروح يرتب القضية هذا الترتيب:

المسلمون يقولون إن القرآن معجز؛ بالقياس إلى الشعر الجاهلى وهو أبلغ ما قاله العرب ...

ولكن الشعر الذى يقول عنه المسلمون إنه الشعر الجاهلى، ويقيسون إليه القرآن فيظهر إعجازه، ليس هو الشعر الجاهلى الحقيقى! إنما هو شعر انتحله المسلمون وسموه «الشعر الجاهلى» بعد أن أعدموا الشعر الحقيقى الأصلى! وقد فعلوا ذلك لأن الشعر الجاهلى الحقيقى الأصلى كان بليغا جدا ... أبلغ مما نتصور! كان أبلغ من القرآن! ولو بقى على حقيقته لما بدا القرآن معجزا بالقياس إليه! ولذلك رأى المسلمون أن يطمسوا عليه، وينتحلوا شيئا آخر أقل منه بلاغة بكثير ... يزعمون أنه هو الشعر الجاهلى، ليبقى القرآن معجزا فى نظر الناس !!!

أرأيت إلى هذه السخافة التى ليس لها دليل علمى واحد يسندها؟!

فالانتحال الذى يشير إليه – إن كان قد حدث – كان فى القرن الأول الهجرى. ولكن العرب الذين واجههم القرآن أول مرة، وتحداهم؛ وعجزوا عن الرد على التحدى، لم يكن الشعر الذى بين أيديهم هو الشعر المنتحل، الذى يقال إن المسلمين انتحلوه فيما بعد، إنما كان هو الشعر الجاهلى الأصلى، الذى يعرفونه جيدا سواء فى المعلقات أو غيرها، والذى كانوا يحفظونه ويتداولونه فى

مجالسهم، فلماذا لم يقل هؤلاء -- وهم أهل الصنعة - إن الشعر الجاهلى أبلغ من القرآن، أو إن القرآن أقل بلاغة من الشعر الجاهلى؟!

ومع ذلك فقد كانت هذه السخافة هى «الوحى» الذى استوحى منه طه حسين كتابه عن الشعر الجاهلى، الذى لا يزيد على أن يكون ترجمة حرفية لما قاله مرجوليوث، والذى قال عنه طه حسين فى لقاء صحفى عام ١٩٧٠ إنه ما زال مصرّ على كل كلمة قالها فيه!!

obeikandl.com